قضايا الأدب والأدباء

حول أدب القوميين السوريين :

البعث والرماد

بقلم رجاء النقاش

لست من المتحمسين لنقد الشعر على أساس سياسي، فهذا الاتجاه في الادب يؤثر كثيرا على القيمة الفنية للانتاج الادبي ، ولكننا مع ذلك لايمكن ان نتجنب هذا الموقف في اللحظة التاريخية الراهنة التي يعيشها وطننا العربي ، ففي هذا الوطن الجريح من كل جانب، تتصارع الافكار والتيارات، وكاتب هذه السطور مؤمن مع آلاف المواطنين العرب ، بان طريق الخلاص لوطننا العربي هو طريق القومية العربية وطريق الاشتراكية في الوقت نفسه ، والقومية العربية والاشتراكية هما الجناحان اللذان تطير بهما الثورة العربية وتنطلق لتحقيق اهدافها في تغيير الواقع الاجتماعي والفكري لقلب حضارتنا بوجهيها المادي والمعنوي .

وأي تأمل لواقعنا العربي الراهن يكشف ان الثورة العربية تواجه ثورة مضادة ، ولهذه الثورة المضادة عدد من الكتائب المختلفة من الناحية الشكلية ، والتي تتفق في النهاية اتفاقا كاملا من ناحية الغاية والهدف ، والقوميون السوريون هم جزء من الثورة المضادة للثورة العربية ، هم كتيبة من الكتائب الكبرى في جيش هذه الثورة المضادة .

وعندما كتبت سلسلة من المقالات في جريدة « اخبار اليوم » ثم كتبت مقالا في العدد السابق من «الاداب» اوضح فيه بعض مواقف القوميين السوريين في الميدان الادبي تلقيت عدة رسائل تهاجمني اشد الهجوم على هذا الموقف، وحسبي هنا ان اشير الى اعنف رسالة تلقيتها ، وكانت بتوقيع « احمد مهدي الامام »، ويدعي الكاتب انه عراقي ، رغم اعتقادي انه من جماعة مجلة « شعر » المعروفين في لبنان ، وان الاسم « مخترع » لتغطية الاسم الحقيقي لصاحب الرسالة .

يقول صاحب الرسالة وانا انقل الرسالة هنا بالنص :

« صدفة وقعت بين يدي ، وانا اقوم بزيارة لبيروت نسخة من جريدة اخبار اليوم وفيها مقال نقدي عن الشاعر ادونيس امير شعراء القوميين السوريين . مالي وللحزب ، فانا لست من مؤيديه ، اما الشاعر ادونيس فقد استغربت ان يسوق قلمك اللامع عادة هذه التهم المجوفة بحقه ، ويشهد الله انني كنت في المقهى حين قراءتي للمقال المذكور فما تمالكت نفسي من الضحك العلني والقهقهة حتى الامر « كذا في الرسالة» الذي جعل نادل المقهى يستوضحني عن سبب هذه الضحكة العالية التي اسقطت طقم اسناني من فمي وتحطم على الارض ، بينما كان الاخرون يسقطون في ذهول تام . وقلت للنادل : ياللغباء ، اتعرف ماهو الفينيق؟ فأجابني وهو على قسط من العلم : بانه طائر اسطوري يحترق عندما يهرم ، ليتجدد ويبعث حيا من رماده .

وازداد عجبي ، نادل المقهى يعرف ماهو الفينيق والناقد رجاء النقاش لايعرفه ... يظنه فينيقيا . لله ما اوسع مجهولات السيد رجاء . وعندما علم النادل بالامر قال لي : لاتستغرب ياسيدي ، فقد تساءل احد رجالات مصر الكبار ذات مرة ، في اية معركة استشهد اللواء اسكندرون « واللواء اسكندرون يا سيدي لمعلوماتك ، هو جزء سلخ من سوريه وضم الى تركيا » واضاف النادل : ومرة كتب كمال الملاخ عن القائد الاسباني العظيم هانيبال !

لقد تألمنا ياسيدي ان يقع المسؤولون عن رعاية الفكر والادب في عالم العروبة بمثل هذا الجهل الفاضح . وازدادت رغبتي بعد مقالك في التعرف الى هذا الشاعر ادونيس الذي نقيم له في العراق أهمية عالية جدا ، وربما سندعوه لزيارتنا حيث نسمع بعض شعره .

وهو يا سيدي مع اعترافك بموهبته ، يعتبر طليعة شعراء العالم العربي والشاعر الوحيد تقريبا الذي استطاع ان يجعل من الادب العربي على مستوى العالم . وهو ايضا في رأيي ، اعظم ثلاثة شعراء انجبهم تاريخنا على مر العصور : احدهم مات طفلا ، قبل أبي العلاء ، والاخر لم يولد بعد ★ ...

ويحلو لي ان أشبه خطيئتك المميتة هذه بذلك الخطأ الذي ارتكبه تلميذ ابتدائي عندما قال لاستاذه :

« الخسن والخسين بنات معاوية » فاستغرب الاستاذ وقد صحح له:

اولا ـ الحسن والحسين لا الخسن والخسين .

ثانيا ـ اولاد وليس بنات

ثالثا ـ علي وليس معاوية

ارجو ان تبقى سيدي ذخرا للادب العربي ... وارجو اخيرا ان يتروى اخواننا المصريون في المسائل الفكرية والادبية على الاقل بحيث لا يتعرضون لها وهم محششون او محششات ـ احمد مهدي الامام » .

هذا هو نص الرسالة التي وصلتني من صاحب التوقيع، والذي اعتقد كما قلت انه توقيع زائف لواحد من مجموعة مجلة شعر المعروفين . وقد حرصت ان انشر هذه الرسالة كاملة لكي يرى القراء العرب صورة اخرى من اخلاق هؤلاء القوميين السوريين ، ونفسيتهم المليئة بالحقد والمرارة والضيق بكل من يحاولون فهمهم وكشفهم على حقيقتهم .

والرسالة لاتحمل أي وجهة نظر موضوعية ، وانما تعتمد على تسقط بعض التهم الجزئية الهزيلة وترديدها ضد كاتب هذه السطور وضد المصريين على وجه العموم ، لم يحاول صاحب الرسالة ان يناقش فكرة واحدة من الافكار التي عرضتها في « أخبار اليوم » او في «الاداب»، لانه هو وأمثاله لايطيقون المناقشة الموضوعية ، ويهربون منها الى ترديد تفاهات .. لاتغني شيئا امام الحقائق التي تدمغهم وتدينهم . فلم يستطع صاحب الرسالة ان يقول شيئا حقيقيا يدافع به عن ادونيس .

واذا حاولت أن احدد لقطة موضوعية واحدة في هذه الرسالة فهذه النقطة الوحيدة هي الفرق بين فينيقيا والفينيق في قصيدة البعث والرماد لادونيس .

والواقع انني قرأت القصيدة جيدا ، وقرأت التفسير النقدي الذي قدمته خالدة سعيد زوجة ادونيس«للفينيق» ذلك الطائر الاسطوري ، وقد اشرت الى هذه الاسطورة في جريدة « اخبار اليوم » في القسم الثالث من دراستي لادب القوميين السوريين « عدد ١٠ مارس سنة ١٩٦٢ من جريدة اخبار اليوم » ، وذلك قبل ان تصلني هذه الرسالة بفترة طويلة .

★ الكاتب يقصد هنا ان ادونيس هو أعظم شعراء العربية على الاطلاق.

ولكنني مع ذلك اعتقد ان المعنى الاساسي في قصيدة ادونيس هو المعنى السياسي ، معنى الحنين الى فينيقيا ، والدعوه الى بعثها وتجديدهـا ، ولـو حلف لـي ادونيس واصحابه على القرآن والانجيل والتوراة ، انهم يقصـدون مجرد معالجة فنية للاسطورة لقلت لهم انتم كاذبون كعهدنا بكم دائما ، ولن اقول هذا عنادا مني واصرارا علـى راي لاتؤيده البراهين ، بل ساقوله استنادا الى شيئين :

اولا : النص الفني لقصيدة البعث والرماد .

ثانيا : وجهة النظر العامة التي يبثها ادونيس فـي شعره وفي كتابته النثرية ويرددها معه ادباء مجلة شعر .

فاذا عدنا الى قصيدة البعث والرماد وقفنا امـام المقطع الاول لنجد ادونيس يقول :

أحلم ان في يدي جمرة
آتية على جناح طائر
من أفـق مغامـر
أشم فيها لهبا هياكليا
ربما لصور فيها سمة امرأة
يقال صار شعرها سفينة
أحلم ان شفتي جمرة
اخالها قرطاجة العصور
كل جمـر شرارة
والطفل فيها حطب ـ ذبيحة المصير
مثل قبس ان لم يضيء يموت
آه ، آه ، رئتاي جمرة
يخطفني بخورها ، يطير بي لموطن
أعرفه أجهله
.....

يشير الشاعر في هذا المقطع الى ثلاثة اشياء :

اولا : مدينة صور

ثانيا : مدينة قرطاجنة وحريقها المشهور الذي اشعله الرومان في تلك المدينة بهدف القضاء عليها وتحطيمها .

ثالثا : شخصية امرأة معينة ، ولن تكون هذه المـرأة بحكم السياق الفني للقصيدة سوى اميرة « صور » ابنة ملك « صور » التي هربت من مدينتها الاولى لتقيم مدينة قرطاجنة التي اصبحت مركزا ضخما لحضارة الفينيقيين وتجارتهم .

وهذه الاشياء الثلاثة التي يشير اليها الشاعر فـي الجزء الاول من قصـيدته هي اجـزاء هامة من تاريـخ فينيقيا والفينيقيين .

يقول ويل ديورانت في كتابه قصة الحضارة « الجزء الاول من المجلد الثالث » :

« تعزو الروايات القديمة انشاء هذه المدينة ـ أي قرطاجنة ـ الى اليسا Elissa ابنة ملـك صور ، فتقول ان اخاها قتل زوجها فأبحرت مع طائفة اخـرى من المغامرين الى افريقيا وسمى المكان الذي استقرت فيـه باسم كارت هدشت أي المدينة الجديدة والذي تحول بعـد ذلك الى اسم « قرطاجنة » ، وهاجر كثيرون من سراة اهل صور الى افريقية ، واستقر معظمهم في قرطاجنة فاصبحت بسبب هذه الهجرة مركزا جديدا للتجارة الفينيقية ،واخذت قوة قرطاجنة وعظمتها في الازدياد كلما اخذت صور وصيدا في الاضمحلال » .

الا يعطينا هذا دلالة أكيدة على ان الشاعر قد ربـط بين أسطورة « الفينيق » وبين فينيقيا ربطا واضحا ، وانه في الحقيقة انما يهدف الى تأكيد المعنى التاريخي السياسي، وان اسطورة طائر الفينيق ليست الا ستارا خارجيا شفافا يخفي تحته المعنى السياسي الذي يريد ان يقوله ؟ ماعلاقة طائر الفينيق بمدينة صور القديمة .. مركز الفينيقيـين القدماء ؟

ماعلاقة طائر الفينيق بمدينة قرطاجنة مركز الحضارة الفينيقية المزدهرة ، والمدينة التي جعلت مـن الفينيقيين « انجليز العالم القديم » كما يسميهم المؤرخون المعاصرون ؟

ما هي علاقة طائر الفينيق بحريق قرطاجنة الذي دمرها وقضى عليها ؟.. صحيح ان طائر الفينيق كما تقول الأسطورة يحترق ليبعث من جديد .. ولكن الا يدل هذا على ان الشاعر قد قصد الى التطابق المباشر بين الواقع التاريخي لمدينـة قرطاجنة والواقع الاسطوري لطائر الفينيق ، فقرطاجنـة قد احترقت لتعود من جديد ، كما يحترق الطائر ليعود من جديد ؟

أليست هذه كلها دلائل مستمدة من قلب القصيدة تؤكد ان المعنى الاساسي هو المعنى الحضاري والسياسي.. وليس هو المعنى الاسطوري فقط كما يقول صاحب الرسالة الصغير ؟

وعندما يقول ادونيس في هذا الجزء من القصيدة ايضا :

آه ، آه ، رئتاي جمرة
يخطفني بخورها ، يطير بي لموطن
أعرفه أجهله .

عندما يقول ذلك ، فهل يسمح صاحب الرسالة الصغير بأن يقول لنا الى أي وطن يحن شاعره ادونيس ؟ هل يحـن الى سوريا التي طرد منها لانه قومي سوري صريح ؟ هـل يحن الى الوطن العربي المجزأ المنقسم المجروح الذي لم يقل فيه كلمة حب واحدة وهو الذي يقول الشعر منذ مايقرب من خمس عشرة سنة ؟ بل وهو الذي ملأ شعره تنصلا من العروبة وحقدا عليها ؟

الى أي وطن يحن هذا الشاعر ان لم يكن الى فينيقيا وسوريا الكبرى وغير ذلك من المشاريع التي يحلم بهـا ويتبناها القوميون السوريون؟! اني اتمنى ان يكشف صاحب الرسالة عن وجهه ويجيب بعلمه الغزير عـلى كـل هـذه الاسئلة ؟

في الجزء الرابع من القصيدة يقول الشاعر :

نيراننا جامحة الاوار كي يولد فينا بطل

ـ التتمة على الصفحة ٧٢ ـ

مدينة جديدة

فندق نيو پالاس
ادارة : فتحي نوفل

وسط راق
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكورسال بعماد الدين

ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo

البعث والرماد

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٣ ـ

وفي نفس هذا القسم الاخير من القصيدة يعود فيقول :

... آه خلني لمرة اخيرة
أحلم ان رئتي جمرة
آتية على جناح طائر
من أفق مغامر
وخلني أشم فيها اللهب الهياكلي
ربما لصور فيها سمة .
وربما تجسدت قرطاجة :
دقائق الغبار فيها لهب
بلى ، بلى ، حتى الغبار لهب
والطفل فيها حطب ، ذبيحة المصير
مثل قبس ان لم يضيء يموت ، لايكون .
آه خلني لمرة اخيرة
أحلم ان رئتي جمرة
يأخذني بخورها ، يطير بي
لموطن أعرفه أجهله .

ان المدينة الجديدة التي يحلم بها الشاعر ليست هي الجزائر الثائرة التي قدمت في سبع سنوات مليونا من الضحايا ، وليست هي بور سعيد التي تلقت على صدرها الاف الاطفال والشباب والنساء والرجال قتلوا كلهم في معركة اليمة حزينة . ليست هذه هي المدينة الجديدة التي يحلم بها ادونيس ، ولكن المدينة التي يحلم بها هي قرطاجنة ، والبطل الذي يحلم به هو بطل القوميين السوريين ولا شيء غير ذلك .

ابعد هذا كله يمكن ان تكون اسطورة طائر الفينيق هي « جوهر » قصيدة البعث والرماد لادونيس ؟ اننا لسنا مجموعة من السذج لنصدق هذا او نسلم به ، فالحقيقة تكشف نفسها من بين سطور ادونيس ، فما اسطورة طائر الفينيق الا حجة فنية خارجية يلجأ اليها ادونيس ليخفي أمله الحقيقي المنشود في جو اسطوري : وما هذا الامل الا عودة فينيقيا الى الحياة وانتصارها على الحريق التاريخي القديم .

وعندما قلت ان ادونيس ينادي فينيقيا ، في قصيدته لم اكن اجهل الاسطورة التي اشار اليها صاحب الرسالة الصغير ، وانما كنت ادرك تمام الادراك ان هذه الاسطورة انما هي حجة زائفة للوصول الى الهدف السياسي الذي يقصد اليه الشاعر ، لان النتيجة البعيدة تكشف نفسها لكل من يحاول ان يقرأ هذه القصيدة بشيء من التأني او الانتباه .

ولا يمكن لاحد أن يعترض على استخدام الاسطورة في الشعر ، فمثل هذا الاستخدام اذا تم على يد شاعر موهوب فانه يدفع الشعر الى اعماق بعيدة ، ويجعل منه عملا فنيا غنيا بمادته ، يقف امامه الانسان طويلا ويتأمله ، وهذا الاتجاه يدفع الشعر العربي بالذات الى آفاق جديدة خصبة ، لم يعرفها تاريخنا الادبي ، لان الشعر عندنا قد وقف في تاريخه القديم عند حدود الشعر الغنائي ، ولم يتعد هذه المرحلة ، ولا شك ان ادونيس يحاول هذه المحاولة ، ولا شك ايضا انه شاعر موهوب قادر ، ولكن ادونيس لايستطيع أبدا ان يصل الى « الصدق الفني » ، لانه يستخدم الاساطير لغرض اخر غير فني ، هو التعبير عن شعوره العدائي نحو القومية العربية بطريقة ايحائية خفية ، والتعبير عن ايمانه بافكار القوميين السوريين عن الحضارة الفينيقية وعودة الحضارة الفينيقية .

وقصيدة « البعث والرماد » ليست الا نموذجا من محاولات ادونيس لاخفاء مشاعره الحقيقية ، وللتعبير الملتوي عن المعاني الاساسية التي يريدها ويدعو اليها ، انه يريد ان يقول شيئا معينا ولكنه لايجرؤ على الجهر بهذا الشيء ، ولذلك تخرج قصائده مرتبكة مليئة بالضباب ، وهذا هو ماسميه « بعدم الصدق الفني » ، ولكن رغم هذا الارتباك فان شعر ادونيس يكشف عن مقاصده الحقيقية وافكاره المختفية .

ووجهة النظر العامة لادونيس تؤكد انه يرمي الى احياء افكار القوميين السوريين بهذه القصيدة وبغيرها من القصائد ، فقد اختار لديوانه الاخير عنوان مهيار الدمشقي ، ولماذا اختار اسم « مهيار » ان لم يكن يرمي بذلك الى تشبيه نفسه بشخصية « مهيار الديلمي » الشاعر القديم الفارسي الاصل ؟ ان دلالة هذا الاسم هي ان ادونيس يريد ان يقول لنا انه ليس من اصل عربي ، وانه ينتمي الى اصل اخر كما كان مهيار ينتمي الى الفرس .

هل يريد صاحب الرسالة ان يقول ان مهيار هو ايضا نوع من الطيور او الحيوانات ؟... ان صاحب الرسالة يعرف كما يعرف ادونيس تماما انهما يحملان في رأسيهما أفكار القوميين السوريين المعادية للعروبة والقومية العربية . ولست بذلك اريد ان احرج احدا ، او ان اتهم احدا ، فأنا اول من يتمنى ان يعود شاعر موهوب مثل ادونيس الى نطاق التفكير العربي الصحيح ، هذا التفكير الذي يتفق تماما مع مصلحة كل مواطن عربي .. مصلحة حاضره ومستقبله ... والذي يتفق مع آمالنا في خلق حضارة قوية قائمة على أسس عصرية في المنطقة العربية ، وخلق ثقافة عربية عالمية تقف جنبا الى جنب مع اي ثقافة عالمية متقدمة .

ولست اريد ان اقطع في المستقبل برأي ، ولكنني مع ذلك أحس ان ادونيس واصحابه من امثال كاتب الرسالة قد باعوا انفسهم للشيطان واصروا على الوقوف في وجه

فتاة في المدينة ..

مجموعة اقاصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

دار الاداب — صدر حديثا

آمال شعبهم وامانى هذا الشعب ، وملأوا انفسهم بمشاعر الغرور والتعالي والحقد ، فلم يعد باستطاعتهم ان يعترفوا بضرورة السير في الطريق الصحيح .

وليس امامنا الا ان نعرف ماذا يقولون وماذا يريدون لكي نتجنب اخطارهم ، فهم لو استطاعوا لاحرقوا الوطن العربي ، مثلما احرق الرومان قرطاجنة ... وكما احرق نيرون روما وهو يضحك ، وقد عجزوا ان يحرقوا المدن والقرى ، ولذلك فهم يملأون الحروف والسطور حرائق وهم يشعلون في هذه الحرائق كل ما آمنت به الامة العربية في معركتها الراهنة ، وكل ماتضمه هذه الامة العظيمة في صدرها من عقائد واحلام .

وكل محاولة للفهم هي اطفاء لحرائقهم ، ولذلك فمحاولات الفهم بالنسبة لهم شيء اليم مزعج ، وهم لايملكون ان يكونوا واضحين او ان يناقشوا الامور بطريقة موضوعية ، ولذلك فهم يلجأون الى أمثال تلك التهم التي وجهها صاحب الرسالة التي قدمت نصها في هذا المقال .

ان هناك شيئا كبيرا يربط بين القوميين السوريين ذلك هو الحقد على مصر ، ومحاولة خدشها والتقليل من قيمتها . لماذا؟ لان انضواء مصر تحت الراية العربية قد بدأ يغير اتجاه الريح بالنسبة للقضية العربية الكبرى ، ولن يبقى مكان لدعاة الفينيقية ولدعاة الفرعونية ، لان الامة العربية احرص على تراث الفينيقيين والفراعنة من هؤلاء الدعاة الزائفين الذين يقفون في ذلك الطابور الهزيل امام السفارات الاجنبية المرتجفة من المد الثوري العربي .

انهم يحقدون على مصر ، لان اهلها « الحشاشين والحشاشات » ـ كما يقول صاحب الرسالة الصغير ـ يعيشون الان في القرن العشرين ويتخطون عصور التخلف التي يعيش فيها صاحب الرسالة وامثاله ... ان الحشاشين والحشاشات يصنعون معجزة السد العالي ، ومعجزة الجيش العربي ، ومعجزة الصناعة العربية المستقلة لاول مرة في التاريخ العربي ، وهم الذين يدخلون التجارب العظيمة بجرأة واقدام ، وينجحون بلا غرور ويفشلون بلا مرارة لانهم قرروا ان يقوموا بدورهم في طليعة الثورة العربية ، هذا الدور الذي يحتاج الى الكثير من التضحيات والالام ، ولقد قرر « الحشاشون والحشاشات » ان يدفعوا هذه التضحيات ويتحملوا هذه الالام لكي تعود فلسطين وتنتصر الجزائر ويسترد العرب لواء الاسكندرونة ، ولكي لايبقى في الوطن العربي العظيم كلاب صغيرة تنبح يمزقها الحقد وتقتلها المرارة ، وتفرز كل يوم مشاعر سوداء في شكل سخرية ثقيلة الظل واتهام بالجهل يوزعونه على الناس واصحاب هذا الاتهام غارقون في جهل روحي لانهاية له رغم التشدق بأسماء الاساطير القديمة والحديثة والسهر في كباريهات باريس وروما وبيروت .

ان الذي يتحكم في هذه الكائنات هو الفزع من زيادة الوعي العربي في مصر ، ومحاولة التقليل من اهمية هذه الظاهرة الهامة في ثورتنا العربية ... وهي ان مصر تقطع كل يوم مراحل ضخمة في اتجاهها العربي الصحيح . ولكن التاريخ يتحرك في عكس الاتجاه الذي يتمناه الخوارج على الثورة العربية من اعدائها الصرحاء والمستترين .

القاهرة — رجاء النقاش

قريبا :

سلسلة القصص العالمية

وفيها تقدم دار الاداب اروع ما كتبه كبار ادباء العالم من القصص الطويلة والقصيرة .

انتظروا الحلقة الاولى :

قصص سارتر

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغثيان ـ الجدار ـ الغرفة ـ ايروستراتـ
صميمية ـ طفولة قائد ـ صداقة عجيبة

نقدها عن الفرنسية
الدكتور سهيل ادريس

والحلقة الثانية :

قصص كامو

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ البكم
الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة
عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الاداب